

صاحبة قيس بن ذريح رمزاً لله المعشوق ، وكان العاشق مجنوناً ينتصر لآوغيه على وعيه .

يلاحظ دارس **بيت الجنون** ان هذه الرموز جميعاً تتكرر في المسرحية — القصيدة . ولعل اصالة توفيق فياض تتبلور في استلهامه الرموز في صيغتها العربية من حيث هي العمود الفقري لعمله الأدبي . فكانت لبنى حجر الزاوية في البناء المسرحي . ولم يكن الرمز المحوري في **بيت الجنون** بسيطاً يمتد في بعد واحد ، بل استطاع فياض ان يصهر التنويعات المختلفة للرمز الواحد في جوهر الصورة المحورية . فكانت ايزيس اخت اوزيريس وعروسه ، وعشثروت أم تموز وعروسه ، والعذراء مريم أم المسيح وعروسه تنويعات مختلفة على حقيقة جوهرية واحدة هي لبنى عروس سامي وصورة أمه . ويدمج فياض الاسطورة الاساسية للموت والانبعث بتنوع آخر عليها هو اسطورة الارض اليابس . وتروي هذه الاسطورة قصة ارض حلت عليها اللعنة فسيطر تنين رهيب على منبع النهر الذي يرويها ومنع الماء عن الارض العطشى ، فحالت حقولها يباساً وخراباً . ويطلب التنين صبياً حسناً كل عام يقدمها سكان البلدة فدية . وتقف الصبية بانتظار الفارس المخلص الذي يقتل التنين ويتزوجها ، فمرد الخصب الى الارض الخراب . وتعد هذه الاسطورة تنوعاً على اسطورة الخضر في صورتها اليهودية المتمثلة في النبي ايليا ، وصورتها المسيحية المتمثلة في القديس جرجس وصورتها الاسلامية المتمثلة في موسى وفتى الله كما يظهران في سورة الكهف .

افاد توفيق فياض من اسطورة الموت والانبعث في كشفه بأساة فلسطين ، التي تمثلت له ارضاً ياباً حلت عليها اللعنة يوم استولى عليها الصهاينة . وتقف الارض منتظرة بطلا يخلصها من براثن التنين ويرد اليها الحياة ويزرع في احشائها بذرة تخصب . لكن الواقع المؤلم يعيد صياغة رؤيا فياض . فتختلط القيم وتغدو لبنى عروسه المحبة تنيناً . فماذا يفعل الفارس ؟ لقد تحولت الام — مبدأ الحياة — اداة دمار . ويجاول البطل الهروب من الواقع بعوالم يخلقها خياله ما فوق الواقع فيحلم بلبنى المثال . فيقتل التنين في ذات لبنى ويبعث المثال . ويؤمن في لآوغيه ان لبنى — ليس كما هي بل كما يجب ان تكون — حية أم تمت .

تتخذ **بيت الجنون** اطارا لها ليلة من ليالي الشتاء العاصفة في بيت يقع بمحاذاة البحر . ويظهر رجل يجلس على كرسي قديم خلف المكتب ، يرى مستغرقاً في النوم ، ملقياً رأسه على ذراعيه فوق الطاولة . وينهض فجأة وهو يصرخ بفزع :

الكابوس ... هذا الكابوس الرهيب ! (متحسناً عنقه) مرة اخرى ! وكان أشباح الجحيم ، انتقلت جميعها الى هنا .. لتشاركني هذا القبر المتعفن ! (بحركاً عنقه) كادت اصابعه المتوحشة تخترق بلعومي .

تبدأ المسرحية — القصيدة في الجحيم ، فيظهر البطل سامي ميتاً مدفوناً في قبر متعفن ، تشاركه السكنى فيه أشباح رهيبية . وليس الجحيم هنا سوى ارض الواقع ، لذا فهوت سامي ليس هو الموت بمعناه العادي بل هو موت في الحياة . لكن نموذج الانبعث الهاجع في اللاوعي الانساني ينتصر على الموت فتتحد صورة سامي الذاتية بصورة اوزيريس الاسطورية ، فيغدو انبعث سامي حتمياً حتمية انبعث اوزيريس . فيقرأ سامي في كتاب التاريخ المفتوح أمامه :

انهض ، انهض يا اوزيريس !

أنا ولدك حوريس ..

جئت أعيد اليك الحياة ،

جئت أجمع عظامك .